الفصل الرابع

الجنون .. في الحياة

obeikandl.com

obeikandl.com

الجنون ..في الحياة

وصمة اسمها "الجنون"

يتجه العامة في الثقافات العربية المحلية إلي استخدام لفظ "الجنون "كوصف للمرض العقلي رغم أن هذا المصطلح ليس له أي دلالة علمية كما يطلق علي مرضي النفس عادة "المجانين "ويشكل هذا الوصف في حد ذاته وصمة هائلة للمريض وتمتد آثارها في إلي أقاربه وكل أهله، كما أن إطلاق أوصاف أخرى مثل "مستشفى المجانين"كوصف للمستشفيات النفسية، أو "دكتور المجانين رغم أن الجنون (Madness)ليس سوى كلمة دارجة.

وهناك حاجز نفسي قائم بين الناس في المجتمع بصفة عامة وبين مرضي الجنون،بل يمتد ليشمل كل ما يتعلق بهم من العيادات والمستشفيات النفسية، وحتى الأطباء النفسيين ، وكل ما يتعلق بالطب النفسي بصفة عامة ، ويسهم هذا الحاجز النفسي في إيجاد اتجاه سلبي نحو الطب النفسي يسبب عزوف الناس وترددهم في التعامل مع

الجهات التي تقدم الخدمات النفسية، ويمكن لنا ملاحظة ذلك بوضوح من خلال عملنا بالطب النفسي حيث يحاول المريض وأهله الابتعاد عن العيادات والمستشفيات والمعالجين الشعبيين حتى تتفاقم الحالة ولا يصبح هناك لبد من استشارة الطبيب النفسي فعند ذلك فقط يحضرون رغماً إلي العيادات النفسية .

و كثيراً ما يعبر المرضي النفسيون عن عدم ارتياحهم لمجرد زيارة الطبيب النفسي، وينسحب ذلك علي المرضي الذين تضطرهم حالتهم المرضية لزيارة العيادات الخاصة أو مستشفيات الطب النفسي: إننا نلمس قلق المريض حين نجده يخشي أن يراه أحد معارفه أو أقاربه أو جيرانه وهو في هذا المكان، إن معني ذلك أن وصمة المرض العقلي أو" الجنون " سوف تلحق به ويصعب عليه فيما بعد مهما فعل أن يصحح المفهوم الذي تكون لدى الناس عنه، ويزيد الأمر تعقيدا إذا كانت المريضة فتاة فمعني ذلك أن هذه الوصمة سوف تهدد مستقبلها فمن من الشباب سيقدم علي الزواج منها حين يعلم أنها ترددت أو قامت بزيارة الطبيب النفس ولو لمرة واحدة !

ولا شك أن مفهوم الوصمة ليس حكرا علي مجتمع بعينه أو أنها مشكلة محلية بل إن الارتباط بين الطب النفسي وهذا المفهوم السلبي موجود حتى في المجتمعات الغربية المتقدمة ولو بدرجة أقل ، إنني أتفهم تماما ما يطلبه بعض المرضي حين يطلبون الاستشارة

في موضوع نفسي لكنهم يصرون علي عدم وضع سمائهم في أي سجل رسمي أو فتح ملف لهم ويعتبرون ذلك مشكلة هائلة قد تهدد حياتهم فيما بعد .

وحين نصف شخصاً ما بشيء مخجل معيب فإننا في هذه الحالة نلصق به الوصمة أي نصمه Stigmatize ، ويكاد يكون انتشار ظاهرة وصمة المرض النفسي عاماً في مختلف ثقافات الشرق والغرب ولا يمكن وضع تقدير كمي لقياس وجود الوصمة في مجتمع ما غير أن الدلائل يمكن أن تعطي انطباعا بحجم وتأثير الوصمة في المجتمعات العربية من خلال الملاحظة والممارسة ، وهنا تؤكد بناء على دراسات مختلفة وجود الوصمة في المجتمعات العربية نحو المرضي النفسيين والطب النفسي والعيادات والمصحات العقلية كما يؤكد ذلك دراسات متعددة

و تشمل المجالات التي تصل إليها وصمة المرض النفسي مناطق عديدة هي:

المريض النفسي patient خصوصاً المصابون بأمراض عقلية والذين يطلق العامة عليهم لفظ "المجنون mad "، وفي التفكير العامي يرتبط هذا اللفظ بوقع معنوي سلبي، ويوجد لدي العامة ارتباط بين ثلاثة أوصاف هي المريض والمجنون والسيئ ,sick , mad) bad) وتظل الوصمة تلاحق المريض علي مدي حياته حتى بعد أن

تتحسن حالته وتوجد أوصاف رمزية في اللهجة العامية يشير بها الناس إلي المرضي النفسيين ، ويزيد من ذلك المعتقدات الخاطئة حول المريض النفسي بأنه عدواني aggressiveويتصف بالعنف violent ولا يمكن لتنبؤ بما يفعل unpredictable وغير قادر علي العمل فلا يمكن الاعتماد عليه

الأسرةfamily التي تضم مرضي نفسيين تلحق بها الوصمة نتيجة للاعتقاد بانتقال الأمراض النفسية بالوراثة عبر الأجيال في أسر معينة وقد يتسبب ذلك في عزلة هذه الأسر والابتعاد عنها .

العاملون staffفي مجالات الخدمة النفسية خصوصاً في المصحات والمستشفيات العقلية مثل الأطباء الذين يطلق عليهم دكاترة المجانين ولهم أوصاف تثير الضحك والسخرية في العامية العربية والأجنبية وغيرهم من الأفراد الذين يعملون في هذه الأماكن .

مؤسسات الخدمة facilitiesالتي تقوم بالعلاج والإيواء والرعاية للمرضي العقليين ، حيث تمثل أسماء هذه المؤسسات من مصحات ومستشفيات وصمة تلحق بكل من يتعامل معها .

بعض أنواع العلاج treatment methods تمثل وصمة لمن يتعاطاها مثل أنواع الأدوية النفسية ، والعلاج بالجلسات الكهربائية .

المجتمع communityأو المدينة town قد تكون موضوعاً للوصمة نتيجة لارتباطها ببعض المصحات أو المستشفيات النفسية.

الجنون ..وأعمال الشيطان:

هنا مناقشة لقضية هامة هي علاقة الشيطان بالجنون أو بالمرض النفسي وهنا نجيب علي أسئلة تدور بالأذهان، ضعنا علي سبيل المثال :

- هل يسبب الشيطان الجنون ؟
- ما رأى الطب النفسي في كلام الجن والشياطين علي لسان بعض المرضي ؟
- هل لحالات الوسواس القهري والصرع علاقة بوساوس الشياطين ومس الجن ؟
- ما هي وجهة نظر الطب النفسي في معتقدات الناس حول الشياطين والجنون ؟

هناك اعتقاد قوى لدى قطاعات كبيرة من الناس خصوصاً المصابين باضطرابات نفسية وأقاربهم بأن هناك قوى خفية تسببت في إصابتهم بالمرض النفسي ، وهم يتفقون علي ذلك وكأنه حقيقة مسلم بها، ويظل الخلاف في الكيفية التي يعمل بها الجن أو الشياطين فيتصور البعض أنهم يدخلون إلي داخل جسد الإنسان ويسببون له الاضطراب الذي لا يشفي إلا بخروجهم منه ، ويعتقد

البعض الآخر ان مجرد المس من جانب هذه المخلوقات يكفي لحدوث المرض ، ويرى آخرون أن المسألة هي وساوس يقوم بتوجيهها الشيطان إلي ضحاياه عن بعد ..

والشيطان في كل الحالات متهم بأنه السبب الرئيسي وربما الوحيد وراء المرض النفسي علي وجه الخصوص وأحيانا بعض الحالات المرضية الأخرى ، ويدفع هذا الاعتقاد الكثير من المرضي إلي طلب العلاج لدى الدجالين والمشعوذين الذين يتعاملون مع الجن والشياطين دون التفكير في اللجوء إلي الطب النفسي إلاّ بعد مرور وقت طويل من المعاناة .

وبحكم العمل في الطب النفسي فإن نسبة لا تقل عن 70% من المرضي يذهبون في البداية إلي المعالجين الشعبيين أو المشعوذين قبل أن يفكروا في زيارة الطبيب النفسي، ورغم أنه لا يوجد دليل واحد علي علاقة الشيطان بالأمراض النفسية فإن بعضا من المتعلمين إلي جانب البسطاء لا يستطيع فهم الحقائق العلمية التي تؤكد أن غالبية الأمراض النفسية الرئيسية قد تم التوصل إلي معرفة أسبابها وأنها نتيجة تغييرات كيميائية في الجهاز العصبي يمكن علاجها عن طريق تعديل الخلل الذي يعاني منه المريض باستخدام الأدوية النفسية الحديثة، وكما سنعرض نماذج لذلك في هذا الموضوع فإن الشيطان ليس له دور مطلقاً في هذه المسألة .

ومن الحالات الغريبة التي يتناقل الناس الحديث حولها في المجتمعات العربية حالات لمرضي يغيبون عن الوعي ويبدأ الشيطان أو الجن في الحديث من داخلهم .. !!

فالكلام يصدر عنهم لكنه بنبرات وأسلوب يختلف عن طريقتهم المعتادة في الحديث، والكل هنا يؤكد أن المتحدث هو المخلوق الغريب بداخلهم، وربما يذكر هذا المتحدث اسمه وديانته والمكان الذي حضر منه فهناك الجن الكافر، وهناك الشيطان الصغير والفتاة المثقفة والمرأة التي تبدى رغبتها في الزواج من المريض، أو الرجل الذي يؤكد انه يحب ضحيته ولن يتركها ، وكل هذه نماذج من الشياطين الذين يتحاورون مع المحيطين بالمريض وكثيراً ما يقدم الواحد منهم بعض المطالب حتى يتخلي عن المهمة التي يقوم بها مع هذا المريض ويتركه وشأنه ..والكلام هنا مؤكد، وتسمعه من مصادر كثيرة لدرجة أن بعض الناس يقول لك أن لديه تسجيلات لهذه الوقائع بصوت الشيطان نفسه حتى يصدق الجميع ذلك ..فما تفسير هذا من وجهة نظر الطب النفسي !؟

الجنون..لا علاقة له بالجن والشعوذة :

أقدم هنا وصفا لإحدى حالات الطوارئ النفسية ..كانت الحالة لفتاة في العشرين من عمرها تقريباً ترتدي ملابس رثة ممزقة وفي حالة هياج شديد ونوبات من البكاء والصراخ والضحك الهستيري ورغم

ان هذه الحالات تصادفنا في العادة بين الحين والآخر ولا يعتبر مظهرها غريباً أو نادراً إلا أن ما لفت انتباهي ما وجدته من إصابات بجروح وكدمات لا يخلو منها أي مكان في جسدها، فلما استفسرت من ذويها عن سبب هذه الإصابات أجابني أحدهم بعد قليل من التردد بأنهم حين لاحظوا عليها الحالة العقلية الشديدة التي لم يكن بوسعهم السيطرة عليها ذهبوا بها إلي أحد الأطباء المشعوذين فأكد لهم أنها قد أصابها مس من الجن وإن عليه أن يخرج الجن خارج جسدها حتى تشفي، وبدأ علي الفور فأوثقها بالحبال وراح يتلو بعض التعاويذ لكن ذلك لم يكن كافياً ليصل إلي ما يريد فقد استعصي عليه إقناع العفريت بالخروج وهنا بدأ بأسلوب آخر فلجأ إلي ضربها في كل مكان في جسدها معتقداً انه بذلك يطارد الجن حتى يضطره إلي الخروج لكن عبثاً !فلما وسعها ضرباً وخشي أن يودى بحياتها أشار عليهم بنقلها إلي العيادة النفسية لأن هذا العفريت العنيد أبى أن يستجيب للحيلة أو العنف !

والحقيقة أن هذه الحالة لم تكن الأولي ولن تكون الأخيرة في سلسلة ممارسات الوسائل العلاجية غير الطبية التي ينجم عنها إيذاء بدني شديد فقد رأينا من هؤلاء المعالجين من يسرف في الكي بالنار أيضا، ومن يستخدم مواد طبيعية وكيماوية ضارة في وصفات غير مقننة، هذا إضافة إلي استهلاك الوقت والجهد في العلاج بطرق

غير مجدية تتسبب في تأخر ذهاب المرضي إلي العلاج الطبي فتتفاقم حالتهم وتضحي أكثر صعوبة .

وإضافة إلي ذلك فإن هناك دلائل عديدة علي أن الكثير من الممارسات غير الأخلاقية ترتكب من خلال ما يقوم به أدعياء تحت ستار التداوي والتطبيب، ناهيك عما نسمع عنه من ابتزاز مؤدى للضحايا الذين ينساقون بتأثير طلب الشفاء كمن يتعلق بقشة وهو يغرق ويدفعهم حظهم إلي براثن هؤلاء المشعوذين وعليهم تلبية طلباتهم المبالغ فيها وللحقيقة فإن هؤلاء يشكلون تحدياً خطيراً للخدمات الصحية النفسية ويستفيدون بالوصمة التي تحيط بالتردد علي العيادات النفسية والتي لا زلنا نعاني منها، وصراحة فإنهم يلقون قبولاً اجتماعياً لما تتصف به أساليبهم من قوة الإيحاء التي تضفي عليها تأثيراً نفسياً لا نستطيع إنكاره يسهم في شفاء بعض الحالات بالفعل !

والواقع أنني شخصياً قد استمعت إلي مثل هذه الأشياء في حياتي العملية عدة مرات ..لكن هذه الحالة أيضا لا علاقة لها بالشيطان نهائياً والمتحدث هنا هو المريض نفسه وهو في حالة نطلق عليها التحور الهستيري يغيب فيها عن الوعي مؤقتاً وتظهر بعض محتويات عقله الباطن فيقوم بالتنفيس عن بعض رغباته المكبوتة ويهرب من الواقع والضغوط التي لا يحتملها فيتصور الجميع أن

بداخله شيطان يتكلم ، وهذه الحالات لا تحتاج إلي جلسات "الزار أو الذهاب إلي الدجالين ، أو ضرب المريض بقسوة لإخراج الجن كل ما في الأمر هو تهدئة المريض وبحث حالته النفسية والتعامل مع الضغوط التي يتعرض لها ، وهنا تتحسن الحالة دون تعامل مع الشيطان .

أما الهلاوس Hallucinations فهي أن يتصور المريض انه يرى أشباحا أو يسمع أصواتاً تتحاور معه أو تهدده أو تأمره بأن يفعل أشياء معينة ، وقد يفسر الناس ذلك بأن الشياطين هي التي تفعل ذلك لكن ومن وجهة نظر الطب النفسي هي وجود خلل في جهاز الاستقبال لدى المريض يجعله يستقبل صوراً وأصواتاً لا وجود لها وهذه الحالات أيضا تتحسن بالعلاج بالأدوية الحديثة ولا دخل للشيطان في هذه الأعراض النفسية المرضية التي تحدث في مرضي الفصام والأمراض العقلية الذهانية وأذكر بعض الحقائق العلمية الهامة التي تمثل وجهة نظر الطب النفسي في هذه المسألة وهي :

لا دخل للشيطان بالأمراض النفسية والعضوية التي تصيب الإنسان وأسباب هذه الأمراض اكتشف الطب جوانب كبيرة منها وتوصل الي علاجها بعيداً عن أي قوى خفيه .

لا يوجد ما يدعو إلي تعظيم شأن الشيطان بأن ننسب إليه أشياء كثيرة مع انه كما نعلم من نصوص القرآن اضعف من ذلك بكثير

ولا يستطيع السيطرة علي الإنسان إلا من خلال قدرته المحدودة علي الإغواء لبعض الناس ممن لديهم الاستعداد لذلك .

القضية التي ناقشناها هنا في هذا الحيز المحدود بعيدة عن أي جدل فقهي، والمطلوب هو حملة توعية لتوضيح الحقائق حتى لا يختلط العلم والإيمان بالخرافة والدجل .

الممارسات التي يقوم بها أدعياء الطب والدجل والشعوذة باستغلال معتقدات الناس حول الشيطان وعلاقته بالمرض النفسي يجب أن يتم وضع حد لها بعد أن تطور الطب وتوصل إلي كشف الكثير عن أسباب وعلاج هذه الحالات .

المجانين في الشوارع:

من الطبيعي أن يتواجد المرضي العقليون ، وهو الوصف الذي يطلقه الأطباء النفسيون علي من يصفهم الناس بالمجانين في المجتمع ويمارسون حياتهم في كل مكان حيث نصادفهم في الشوارع والحدائق والمقاهي نظراً لأن طاقة المستشفيات والمصحات لا تستوعب إيواء كل هذه الأعداد وإذا أخذنا مثلاً علي ذلك مرضي الفصام العقلي وهو من أسوأ الأمراض العقلية التي تسبب تدهوراً خطيراً في الشخصية والسلوك وتؤدي إلي انفصال المريض عن المجتمع وإهماله لعمله وعدم المبالاة بأي شيء وعدم العناية بمظهرة أو ملابسة فإننا نجد أن عدد المرضي في مصر تبعاً للإحصائيات العالمية

١٪ يزيد عن نصف مليون لا تستوعب منهم كل المستشفيات العقلية أكثر من ٢٪ أقل من ١٠آلاف ، والباقي خارج المستشفيات وكثير منهم يعيشون في ظروف سيئة حيث يتسبب المرض العقلي في تدهور حياتهم الاجتماعية والأسرية وتخلي الجميع عن المريض فيضطر بعضهم إلي البقاء في الشوارع دون رعاية ، ومع زيادة أعدادهم فإنهم يتعرضون لكثير من الأزمات ، كما يتسببون في مشكلات متنوعة أثناء وجودهم دون رعاية وسط المارة في الشوارع .

ومن المشاهد التي تلفت الأنظار في زحام السيارات والمشاة في شوارع المدن المزدحمة بعض الأشخاص ممن يبدو من خلال مظهرهم وعدم اهتمامهم بملابسهم أو إهمال حلاقة اشعر أنهم يعانون من اضطراب عقلي ويقومون بتوجيه إشارات لسائقي السيارات باستخدام الأيدي للتحرك أو التوقف ويستخدم بعضهم صفارات يطلقها مصاحبة لأوامره بتنظيم مرور السيارات والمشاة في الاتجاهات المختلفة ، والحقيقة أن هذا المشهد المتكرر قد لا يخلو من الطرافة ويثير تعليقات قائدي السيارات والمارة ولكنه يتطلب أن نراه بنظرة التحليل من النظرة النفسية فالشخص الذي يقوم بذلك ويندمج فيه ويصفه الآخرين بالإجماع بأنه مجنون لأنه يقوم بعمل لم يطلب منه ولا يتقاضى علية أي مقابل وليس من اختصاصه ، لكن عين الطبيب النفسي حين ترى هذا المشهد فإن التفكير يتجه إلي إنسان

يعاني من الاضطراب العقلي لأنه خرج عن المألوف الذي يتعارف عليه الناس ، وربما كانت لديه رغبة داخلية قوية تدفعه إلي أن يري كل شيء حوله منظم بصورة مثاليه والحياة ليست بهذه الصورة وقد تدفعه رغبة في حل مشكلات الشارع الذي يمثل بالنسبة له فوضي الوسط المحيط به إلي محاولة تنظيم منطقة ما هي تقاطع طرق في الغالب كرمز لمحاولة ضبط الحياة من حوله والتصدي للفوضى والعودة إلي الانضباط والمثالية التي يفتقدها ..لكن جهوده المضنية في تنظيم المرور في نقطة ما لا يمكن أن تحل مشكلة العالم الذي يمتلئ بالمتناقضات والفوضى ولا يمكن أن يسود فيه الانضباط والمثالية .

- وتثير هذه الظاهرة الكثير من الاعتبارات القانونية ، والسؤال هنا هو من المسئول عن وجود هؤلاء المرضي العقليين في الشوارع ؟
- وما حكم ما يتعرضون له وما يتسببون فيه من مشكلات لأنفسهم وللآخرين ؟..

والإجابة علي هذه التساؤلات ليست يسيرة ، فالجميع يبعدون أنفسهم عن هذه المسئولية ، الأسرة تتخلى عن الشخص لأن المرض العقلي يجعل منه عبئاً لا يحتمل ، فحالته المتدهورة تجعله غير قادر علي العمل أو الكسب ، وعلاجه يتطلب الكثير من النفقات والجهات التي تقوم علي الرعاية الطبية والاجتماعية لديها ما يشغلها عن هؤلاء

المرضي في الشوارع، والأمن لا يتحرك إلا إذا حدثت مشكلة، لكن طرح هذا الموضوع يعتبر من الأولويات لأن فئة المرضي العقليين (ولا نريد أن يصفهم أحد بالمجانين) من الفئات الخاصة التي تتطلب الرعاية من المجتمع فهم إخوان لنا ولا دخل لهم فيما أصابهم من مرض وندعو إلي أن تتبنى لجنة من الجهات المختلفة الحكومية من أطباء وقانونيين والأمن ومؤسسات الرعاية الاجتماعية والجمعيات الأهلية الاهتمام بهذه المشكلة ووضع الحلول المناسبة لها.

وهناك أمر لا يخلو من الطرافة يتعلق بما تتحدث عنه، فقد وجد أن نسبة من كبار السن ممن ينتمون إلي الطبقات العليا أو المتوسطة في المجتمع، ولا يعانون من الفقر، يفضلون العيش بمفردهم ويتجهون إلي إهمال ملابسهم ونظافتهم الشخصية، بل أكثر من ذلك يجمعون القمامة والقاذورات ويحتفظون بها ..

و المكان الذي يعيشون فيه يكون في حالة من الفوضى الشاملة ورغم أن هؤلاء الناس لا يعانون من مرض العته أو خرف الشيخوخة ولا من الاكتئاب أو التخلف العقلي فإنهم يختارون الاستمرار في الحياة بهذه الطريقة، والزهد في كل شئ في الحياة رغم إمكانية توفر بدائل أفضل لهم، ويعتبر ذلك لونا من التطرف في سلوك هؤلاء المسنين قد يعرضهم للإصابة بالأمراض أو الهلاك من برد الشتاء وقد أطلق علي هذه الحالات مرض "ديوجينز" نسبة إلي الفيلسوف

الذي أسس المبدأ القائم علي فلسفة الزهد في الحياة وأطلق عليه الملهب "الكلبي" أو الساخر، ولله في خلقه شئون !!

الجنـــون ..والفنـــون:

يقولون في الأمثال الشعبية : "الجنون ..فنون .."وقد أثبت العلم وجود علاقة قوية بين الحالات الانفعالية الشديدة التي تسبب الاضطراب النفسي والتي يطلق عليها عامة الناس "الجنون "وبين الإبداع الفني الذي يظهر في صورة لوحات فنية معبرة عن العالم الداخلي للإنسان ..وأحياناً في صورة أعمال أدبية أو فنية تظهر فيها عبقرية استثنائية غير معتادة ..وهنا محاولة لاستكشاف هذه العلاقة بين الإبداع الفني والانفعالات الإنسانية الداخلية.

وحين يبدع الإنسان فإنه في الغالب لا يكون في حالة طبيعية من الوعي المعتاد، وحين يكون في هذه الحالة الخاصة فإن ما يعبر عنه في إبداعه الفني يكون تعبيراً عن كوامن نفسه، وانعكاساً لما في عقله الباطن وتعبيراً عن تجارب وخبرات من الماضي والحاضر، أو تطلع إلى المستقبل، كما أن الإبداع الفني بين وجهة النظر النفسية هو ظاهرة استثنائية يكون وراءها في العادة موهبة فطرية تؤدى إلى القدرة على الخلق والتميز، ومن ناحية أخرى فإن المعاناة الإنسانية والظروف والمؤثرات التي يتعرض لها الإنسان هي التي تظهر هذه الموهبة ..ومن هنا كان الارتباط بين الإبداع والحالة النفسية .

و تنعكس الانفعالات والمشاعر الداخلية للإنسان على أسلوبه في التعبير بالكتابة ، أو الكلام ، أو حين يمسك قلماً ويرسم على الورق ..فالإنسان الذي يعاني من الاكتئاب النفسي مثلاً ويرى الحياة كئيبة والدنيا كلها يأس وظلام ، يتجه إلى رسم أشكال سوداء وأشياء مشوهة ذات ألوان داكنة ، بينما يمكن لنفس هذا الشخص حين يتخلص من الاكتئاب ويعود إلى حالته الطبيعية أن يرسم لوحات من الزهور وأشياء تدعو إلى البهجة والفرح ويلونها بألوان زاهية ..كما أن الإنسان في حالة القلق والخوف يعبر عن ذلك بالكلام والرسم بما يعكس ما يدور بداخله من مشاعر وأفكار.

وحين يقوم المرضى العقليون الذين يعانون من الهلاوس وهى أصوات يسمعها الإنسان أو أشكال تتراءى أمامه بالتعبير بالرسم فإن لوحاتهم تعكس العقد والصراعات في داخلهم ، ويبدو فيها الغموض والحيرة وتداخل الأفكار ..ولعل الرسم هو أحد الوسائل التي يمكن للأطباء النفسيين استخدامها لمعرفة الكثير من العقد والأفكار المكبوتة داخل العقل الباطن لهؤلاء المرضى حين يتم السماح لهم بالتعبير الحر عما يريدون عن طريق الرسم ، ثم تحليل ما يقومون بإسقاطه على الورق.

الفن العالمي ..في العيادة النفسية:

وفى الأعمال الفنية لكبار الفنانين العالميين ما يدل على الخلفية النفسية لهم من خلال العلامات والدلائل التي تحملها الأشكال والألوان التي تزخر بها اللوحات والأعمال الفنية الشهيرة، ومثال ذلك أعمال الفنان" فان خوخ" التي تأثرت بالمرض النفسي الشديد الذي كان يعانى منه حتى أنه في نوبة من الاضطراب النفسي قام بقطع إحدى أذنيه وقدمها هدية لامرأته.

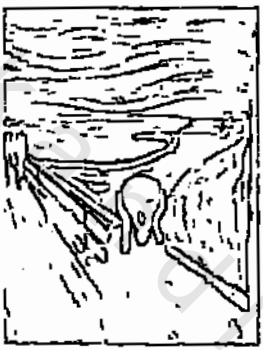

لوحة الصرخة التي تعبر عن القلق والخوف
من أعمال مونش

هناك لوحات تعد من الأعمال الفنية العالمية الخالدة تحمل أسماء لها دلالات نفسية قوية، مثل لوحة " المكتئب"فان جوخ" ..ولوحة "الصرخة" التي تعبر عن القلق والخوف من أعمال "مونش "ولوحات أخرى عديدة تدل ألوانها وخطوطها وفكرتها على ما بداخل عقل

صاحبها من مشاعر الحزن أو القلق أو ما أصابه من اضطراب وتداخل وتشويش.

وفى الجانب الآخر هناك لوحات تبعث رؤيتها عن النظر إليها للوهلة الأولى على الارتياح، مثل لوحة الموناليزا أو " الجيوكاندا" الخالدة التي تمثل وجهاً يبتسم ..وتعطى اللوحة شعوراً لكل من يراها يحمل الإيحاء بالارتياح والتفاؤل.

جنون ..فان جوخ:

كانت أعمال فان كوخ مؤثرة جدًا، ولها خصوبتها البالغة فهناك تدفق وهناك مواجهة مع الحياة بكل غناها وعطائها، ففي لوحاته نبض الحياة الحقيقي الحي والقوة الهائلة التي تنبعث من الأفكار التي يرسمها ..تتفجر الألوان كصرخة فهناك المساحات المسطحة من الألوان الأبيض والفضي والقرمزي ، وعلى الخصوص وقبل كل الألوان هناك الأصفر وهو اللون المفضل من بين الألوان لدى فان كوخ .فنحن نرى الأصفر من لوحة "سهل كرو"، ولوحة

"قهوة المساء" ومرورا بلوحة "عباد الشمس"، ويضع فان كوخ هذا اللون دون أدنى تحفظ.

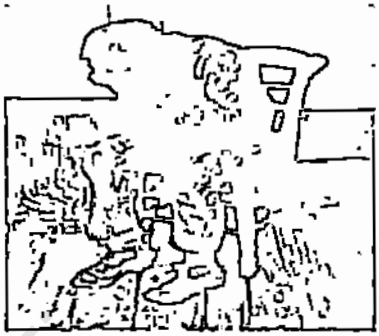

"المكتئب" فان جوخ

وفان جوخ عرف بحالة الاضطراب النفسي الشديد التي تنتابه حتى لقد قطع أذنه اليسرى ذات مرة ليهديها إلي امرأة ، ولعل من أشهر لوحاته ما تحمل اسم "المكتئب "كما يوجد لوحات أخرى من الفن العالمي تحمل عنوان "الاكتئاب "و "الصرخة "، وغير ذلك من دلالات الاكتئاب.. ويمكن أن نرى في لوحاته صور هلوسة لمخيلة مريضة.. كان فان كوخ مجنونا إن كان لهذا المفهوم معنى محدد...لكنه على الأقل كان يتعرض لأزمات من الجنون وأدخل إلى المستشفى عدة مرات وعاش فترات من الاكتئاب والقلق .

ارسم شيئا ..تظهر عقدتك :

لقد أمكن في العيادة النفسية استخدام أسلوب الرسم في تشخيص الحالات التي تعاني من الاضطرابات النفسية ..وإظهار الكثير مما يخفيه المرضى من الصغار والكبار عن طريق السماح لهم بالتعبير عما يشعرون به في صورة رسم ولوحات فنية، فحين نطلب إلى الطفل الذي يعاني من اضطراب نفسي أن يرسم صورة لرجل أو نطلب منه أن يرسم وجه أبيه أو أمه أو معلمته في المدرسة فإنه في هذه الحالة عادة ما يعبر عن شعوره نحو كل من هؤلاء بإبراز ملامح مرغوبة أو إظهار علامات مشوهة في أشكالهم تعبر عن وجهة نظره نحوهم التي لا تستطيع أن يعبر عنها الكلام .

لقد أمكن لي من خلال عملي في مجال الطب النفسي ملاحظة الكثير مما يقوم المرضى النفسيون حين يعبرون بالرسم، فكان محتوى لوحاتهم في كل الحالات هو انعكاس لانفعالاتهم ومشاعرهم وأفكارهم ..بما يمكننا في كثير من الحالات من التوصل الى ما يدور داخل عقولهم من هموم وأفكار لا يعبرون عنها بالكلام أثناء المقابلة والحديث مع أطبائهم، إن جمع وتحليل نماذج من رسوم المرضى النفسيين ، وقد حاولت عرض البعض منها هنا نتعلم منه الكثير حين نحاول عن طريق الفنون أن نغوص في أعماق النفس الإنسانية.

جنون الانحرافات الجنسية:

تشمل الانحرافات أو أنواع الشذوذ الجنسية عدة حالات لها آثار عميقة علي الفرد، ولتوضيح معني هذا المصطلح فإن الوظيفة الجنسية يفترض أن تساعد علي الألفة الإنسانية وتدعم الحب بين طرفين وقبل ذلك وبعده فإن هدفها الرئيسي هو التناسل، أما الشذوذ أو الانحرافات الجنسية فإنها علي عكس ذلك تؤثر سلبياً علي العلاقات الإنسانية رغم أنها تمارس بواسطة نسبة صغيرة من الناس لكنها تؤثر علي دائرة أكبر من المحيطين بهم.

وقد ظل الشذوذ الجنسي Homosexuality لمدة طويلة يصنف كأحد الانحرافات الجنسية والنفسية، ورغم أن الجنسية المثلية أو ممارسة الشذوذ مع شخص من نفس الجنس من الأمور التي لا تتفق مع الأعراف والتقاليد في معظم المجتمعات بدرجات متفاوتة إلا أن هذه الحالة ينظر إليها في بعض الثقافات الغربية علي أنها أسلوب في التعبير الجنسي، ولذلك فلا يعتبر الشذوذ أو ممارسة الجنسية المثلية في حد ذاته اضطراب نفسي إلا إذا اقترن بمشاعر سلبية مثل الرفض من جانب الشخص الذي يمارسه أو شعوره بالندم وتأنيب النفس إزاء ما يفعل، فيعتبر في هذه الحالة يعاني من اضطراب نفسي.

وفي مراجع الطب النفسي يرد ذكر الكثير من الحالات لانحرافات ترتبط بممارسة الجنس أو بالأشياء التي تسبب الإثارة الجنسية والتي

تختلف عما هو مألوف ومتعارف عليه في الممارسة الجنسية الطبيعية

ومن أمثلة هذه الحالات :

السادية: وتعني الحصول علي اللذة الجنسية من الأفعال التي تسبب الألم للطرف الآخر ، وينطبق هذا الاتجاه لتعذيب الغير في رغبة تتملك بعض الناس ويشعرون في ممارسة ذلك بالإشباع والارتياح الشديد !

- **والسادية:** هي نسبة إلي المركيز دى ساد Marquis de Sade الذي كتب في القرن ١٨عن شخص يشعر بالمتعة الجنسية في ألم الآخرين ، وقد ترتبط هذه الحالة بالماسوكية نسبة إلي ليوبلد فون ساكر ماسوك L.SMasoch وهو روائي نمساوي في القرن ١٩التي تربط اللذة مع الشعور بالألم ، والسادية من الانحرافات الجنسية ، وهي أيضاً أحد اضطرابات الشخصية السادية Sadistic personality disorder
- **الماسوكية** : وهي عكس الحالة السابقة حيث يتولد شعور اللذة والإشباع من معاناة التعذيب الذي يقوم به الغير نحو هذا الشخص خلال الممارسة الجنسية أو التألم بصفة عامة.. وتعتبر الماسوكية (الماسوشية)من الانحرافات الجنسية التي يكون مصدر اللذة والإشباع فيها التعذيب

والألم الذي يعاني منه الشخص نفسه وينزله به الغير وتنسب إلي الكاتب الروائي النمساوي ماسوك L.S.Masoch في القرن 19 والوصف هو ماسوكي (ماسوشي)Masochist or Masochistic ، ويمكن ارتباط هذه الحالة بالسادية Sadomasochism، أي إضافة لذة تعذيب الغير أيضاً.

- **زنا المحارم:** تعرف هذه الحالة بأنها تشمل أي ممارسة جنسية بين أقارب الدم، وفي تعريف أوسع فإنها تشمل كل من تربطهم صلة قرابة يتعارف علي أنها تمنع الارتباط الجنسي بينهم، فلا تقتصر علي الأب أو العم و الخال والأخوة بل تشمل الأصهار وغير الأشقاء بين الأخوة وأكثر أنواع هذه العلاقات حدوثاً هي الأب مع ابنته 75%من الحالات التي يتم الإبلاغ عنها (ثم الأصهار) مثل والد الزوج أو زوج الأم، والعم أو الخال، ثم الأخوة الأكبر سناً، وأقلها العلاقة بين الأم والابن، ولا يعرف بالتحديد مدى انتشار هذه الحالات نظراً لعدم الإبلاغ عنها.

- **الفتشية:** في هذا النوع من أنواع الشذوذ أو الانحرافات الجنسية Paraphilias يكون مصدر الاهتمام والإثارة الجنسية هو بعض الأشياء والمتعلقات الخاصة بالجنس الآخر مثل

الحذاء أو الجورب أو القفاز ، وهذه الحالة خاصة بالذكور وتعود جذورها إلي مرحلة الطفولة والبلوغ ، أما الحالة الفتشية مع التزيي Transvestic fetishism فإنها تعني ارتداء الذكور للملابس النسائية لتحقيق الإثارة الجنسية .

- **الكتابة الإباحية** Pornography : تعتبر إباحية الكتابة -أي التعبير عن الإباحية بالكلمة والصورة من الانحرافات الجنسية ، وهي الاتجاه إلي ممارسة التعبيرات الإباحية المنافية للآداب عن طريق الكتابة والرسم علي الجدران أو نشر ذلك بأية وسيلة ومن ذلك "الانترنت" وهي ما يقوم به البعض من كتابة بعض العبارات الخارجة علي الجدران أو رسم بعض الصور الخليعة داخل دورات المياه العامة وتكون هذه الكتابات والرسوم عادة ذات محتوى جنسي خارج.
- **جماع الحيوانات**: حيث يستخدم الحيوان كطرف للممارسة الجنسية أو تفضيل معاشرة الأطفال الصغار أو المسنين للممارسة الجنسية وأحياناً جثث الموتى ، وكل هذه انحرافات في اختيار الشريك المفضل لممارسة الجنس معه .
- **التلصص** : لَذة جنسيَة من التَطَلّع للأعْضَاء الجنسيَة في هذه الحالة يتم مراقبة الآخرين والتلصص عليهم باستراق البصر لرؤية أجسادهم والممارسات الجنسية بينهم وتتحقق اللذة

بذلك وتعرف هذه الحالة أيضاً بعشق الرؤية Scopophilia وتبدأ للمرة الأولي عادة في الطفولة وهي إحدى حالات الانحراف الجنسي .

- **التعري والاستعراض** :Exhibitionism إن التعري واستعراض الأعضاء الجنسية يصاحبه عادة اضطراب في القوى العقلية أو الحصول علي اللذة الجنسية من مشاهدة الصور والمشاهد الإباحية وغير ذلك من الحالات الغريبة مثل الاستمتاع الجنسي من ارتداء ملابس الجنس الآخر .
- **الاحتكاك**: أحد أنواع الشذوذ أو الانحرافات الجنسية يميل فيه الشخص إلي الاحتكاك الخارجي مع الآخرين في الأماكن المزدحمة، ويكون ذلك هو المصدر الرئيسي للاستمتاع الجنسي في هذه الحالة المرضية.

وتفسير هذه الحالات طبقاً للتحليل النفسي أنها نتيجة لعقد تكونت واستقرت في العقل الباطن في مراحل الطفولة المبكرة حيث كان مصدر اللذة في المرحلة الفمية والشرجية ومراحل النمو الجنسي الأولي قد صادف بعض الاضطراب الذي يعبر عن نفسه عند ممارسة الحياة الجنسية بعد البلوغ وفي مراحل العمر التالية بهذه الصور غير الطبيعية .

ولعلاج هذه الحالات يجب أن نأخذ في الاعتبار ما يشعر به هؤلاء المنحرفون جنسياً من حرج بخصوص حالاتهم ، ويجب بداية التحقق من رغبتهم في التخلي عن هذه الأساليب الشاذة ، ويتم العلاج النفسي بإزالة القلق والتوتر وشعور الندم وتأنيب الضمير الذي عادة ما يصاحب هذه الممارسات ، ومحاولة وضع أنشطة واهتمامات بديلة.

جنون السرقة المرضية Kleptomania :

قد يتفهم أي منا حدوث السرقة من "حرامي" محترف يعيش علي ما يسرق من أموال ، أو حين يقوم شخص تحت ضغط الحاجة بسرقة بعض الأشياء للإنفاق علي متطلباته بعد أن ضاقت به السبل لكن أي منا قد يقف في حيرة أمام بعض جرائم السرقة التي يقوم بها شخص ميسور الحال أو هو من الأغنياء فعلاً ولا يحتاج إلي ما يسرق علاوة علي ذلك فإن ما يقوم بسرقته شئ تافه للغاية ولا يساوى شيئا ...

تلك هي حالة السرقة المرضية Kleptomania والمثال علي هذه الحالة الغريبة السيدة المليونيرة التي تدخل احد المحلات الراقية فتسرق منديلاً رخيص الثمن رغم أنها تملك من النقود ما تستطيع أن تشترى به كل محتويات المحل !

وفي حالة السرقة المرضية لا يستطيع المريض مقاومة إغراء السرقة وغالبية من يقوم بذلك هم من السيدات، ويكون السبب وراء هذه الحالة الغريبة عقد نفسية في صورة معاناة عاطفية وضغوط لم يتم التنفيس مخطط لها سلفا، ولا يشترك فيها غير من يقوم بها ويكون الهدف فيها هو السرقة في حد ذاتها وليس قيمة الشئ الذي يتم الاستيلاء عليه، وقد يعقب ذلك بعض تأنيب الضمير والقلق ويتم علاج هذه الحالة علي أنها احد الأمراض النفسية .

ويتطلب الأمر وضع حل لانتشار جرائم السرقة لمنع أثارها السلبية حيث يؤدى إلي افتقاد الشعور بالأمن نتيجة للقلق المرتبط باحتمال فقد الممتلكات . .

والحل من وجهة نظر الطب النفسي في التعامل مع ظاهرة السرقة هو الاهتمام بالوقاية قبل العقاب ، ويتم ذلك بإعلاء قيم الأمانة وغرس ذلك في نفوس الأجيال الجديدة ، كما أن خلق النموذج الجيد والقدوة الطيبة له أهمية في دعم الصفات الايجابية في نفوس الصغار ويقابل ذلك التقليل من شأن الذين يقومون بارتكاب المخالفات حتى لا يرتبط السلوك المنحرف في أذهان النشئ بالبطولة والمغامرة بما قد يغريهم علي التقليد ... ويجب أن يتم احتواء الذين يقدمون لأول مرة تحت تأثير إغراء شئ ما علي سلوك السرقة ، ويتم ذلك بمحاولة تصحيح المفاهيم لديهم بالطرق التربوية حتى لا يتحولوا إلي محترفين

للسرقة فيما بعد، وتفيد سياسة "الجزرة والعصا" ومعناه المكافأة علي السلوك السوي، والعقاب الحازم عند الخروج علي القانون ، ومن شأن توقع العقاب أن يحد من الاتجاهات غير السوية نحو الانحراف .

obeikandl.com